

عبد الرحمن السراج\*  
مراجعة كتاب  
خيارات صعبة

” عنوان الكتاب في لغته: Hard Choices.

عنوان الكتاب: خيارات صعبة.

المؤلف: هيلاري كلينتون.

سنة النشر: ٢٠١٤.

الناشر: Simon and Schuster.

عدد الصفحات: ٦٣٥ صفحةً مرقّمةً من القطع الكبير وثلاث ملازم من الورق المصقول تضمنت ١٠٠ صورة ملونة.

\* باحث وكاتب سوري، محرر أول في موقع ترك برس - تركيا.

ولا يتضمن الكتاب فرضيةً أو أطروحةً شاملةً في العلاقات الدولية أو في العلوم السياسية، ولا يسوق أدلةً أو إثباتات بشأن صحة فرضيةٍ أو إستراتيجيةٍ أو أطروحةٍ معينة، ولذلك لا يمكن تصنيفه في خانة كتب العلوم السياسية أو العلاقات الدولية. فلا جدال في ما يتعلّق بالواقعية أو المثالية، وعلى الرغم من ورود أفكار وملاحظات مهمة متصلة ببعض القضايا الدولية، فإنّ كلينتون لم تربط بين هذه الأفكار لتشكّل رؤيةً متكاملةً للسياسة الخارجية الأميركية. كما أنّها صرفت النظر منذ البداية عن الجدل بين "القوة الصلبة" و"القوة الناعمة"، مفضّلةً "القوة الذكية" التي وصفتها بأنّها "اختيار المجموعة الصحيحة من الأدوات الدبلوماسية، والاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، والقانونية، والثقافية؛ من أجل "تعزيز الأهداف الأساسية لأنمنا القومي". إلا أنّ هذا الطرح يظلّ متعلّقًا بالوسيلة، بدلاً من الهدف، وقد نأت كلينتون بنفسها في صفحات الكتاب عن الجدل الشائك بشأن تعريف مصالح الأمن القومي.

تشير كلينتون إلى أنّ الكتاب موجه إلى الأميركيين وإلى أيّ شخص يودُّ الاطلاع على الكيفية التي واجهت بها الإدارة الأميركية التحديات الكبرى، ومعرفة القيم التي تنطلق منها الولايات المتحدة، وفهم طرائق عمل الزعماء والدول مع بعضهم وتضارب قراراتهم في بعض الأوقات، وأثرها في حياة الأفراد. إلا أنّها تحاول عقلنة قرارات السياسة الخارجية الأميركية في فترة خدمتها، وأن تظهر أنّها تقف الموقف الصحيح تجاه معظم القضايا، وهو ما يدل على أنّ الكتاب موجهٌ بوضوح إلى الناخب الأميركي أكثر من القارئ خارج الولايات المتحدة.

## الكتاب مادةً للتجاذبات السياسية العربية

على الرغم من إشاعة تسجيل مليون طلب لشراء الكتاب قبل صدوره، ودخول الكتاب بعد صدوره قائمة نيويورك تايمز ضمن أكثر الكتب الرائجة طوال اثني عشر أسبوعاً، فإنّ مجموع النسخ الصلبة التي بيعت من الكتاب بعد شهرين من صدوره لم تتجاوز ٢٥٠ ألف نسخة، وقد أخطأ عدد من محرري عروض الكتاب في نقل هذا الرقم وجرى ذكر بيع مليون نسخة منه، ويشمل ذلك الصفحة الخاصة بهذا الكتاب في ويكيبيديا باللغة العربية. كانت مبيعات الكتاب، إذن، دون التوقعات مقارنةً بكتاب كلينتون السابق **التاريخ الحي** الذي بيعت منه مليون نسخة في الشهر الأول، على أنه شكّل مادةً دسمةً لوسائل إعلام عربية غالت في خيالها وافترائها بشأن محتواه.

شغل كتاب **خيارات صعبة** لوزيرة الخارجية الأميركية سابقاً هيلاري كلينتون حيزاً مهماً في الإعلام العربي منذ صدوره في حزيران/ يونيو ٢٠١٤، وتحوّل إلى مادة دسمة لصوغ التحليلات والقراءات التي لم تسلم من تأثير التجاذبات السياسية في المنطقة، ليكون من أبرز الكتب التي تناولها الرأي العام العربي خلال عام ٢٠١٤.

## أهمية الكتاب ومنهجه

يعدُّ هذا الكتاب، من وجهة نظر الدبلوماسية الأولى في الولايات المتحدة، سجلاً لأهم القضايا التي واجهتها السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية في الفترة الرئاسية الأولى لبارك أوباما في تلك الفترة. تقول كلينتون إنّ الكتاب يتناول عدداً من الخيارات التي اتخذتها بوصفها وزيرةً للخارجية تجاه الأحداث المهمة، والحيثيات المحيطة بها، وموقف الإدارة الأميركية والزعماء والدبلوماسيين في مختلف أنحاء العالم. وعلى الرغم من ذلك، لا يمكن تصنيف كتابها ضمن كتب التاريخ؛ فهو مقسّم إلى سبعة أبواب وخمسة وعشرين فصلاً على أساس جغرافي، وليس بناءً على ترتيب زمني.

وإذا كانت كلمة "مذكرات" قد وردت على غلاف الكتاب، فإنّ ذلك لا يعني أنه سيرة ذاتية بالمعنى الكلاسيكي للكلمة؛ فهو يجتنب الأسلوب الأدبي، أو ما يمكن أن يدل على مشاعر الكاتبة؛ إذ لم يرد فيه أيّ مؤشر دالّ على شعورها بالغضب طوال السنوات الأربع، ولكن ورد شعور بقليل من "الاستياء"، ولم يرد شعور بالتعب إلا نادراً. ولم تضع كلينتون أيّاً من قراراتها السياسية المهمة التي توثّقها في الكتاب في سياق محليّ أو دولي، فقد رَوّت كلّاً منها على أنه قصة في حدّ ذاته، تنتهي نهايةً سعيدةً، حتى لو كان الواقع خلاف ذلك. وقد تحوّل الكتاب قبل صدوره بفعل الحملة التسويقية الضخمة عبر وسائل الإعلام واللقاءات المتكررة لكلينتون إلى سلعةٍ ثمينةٍ بغضّ النظر عن محتواه.

تقول الصحافية أنّ أبلبوم التي تناولت الكتاب في مقالة لها إنّ زوجها وزير الخارجية البولندي (السابق) رادوسلاف سيكورسكي ما إن رأى الكتاب حتى تصفحه ليجتنب عن اسمه في الجداول في الصفحات الأخيرة من الكتاب؛ إذ يكفي أن يرد اسمه في هذه الكتاب ليعدّ ميزةً له، وخصوصاً أنّ مؤلفته قد تكون الرئيسة المقبلة للولايات المتحدة الأميركية.

من المحللين إلى أن تعيين مثل هذين الدبلوماسيين البارزين قد يحد دور وزيرة الخارجية الجديدة، فإن كلينتون ترى أن وجودهما قد يزيد من نفوذ الإدارة الأميركية وصدقيتها. وتقول إنها تعلمت أنه توجد ثلاث وظائف لوزير الخارجية، هي: الدبلوماسي الأول للبلاد، والمستشار الرئيس للرئيس في شؤون السياسة الخارجية، والمدير التنفيذي لمؤسسة مترامية الأطراف.

كانت التحديات التي ورثتها الإدارة الأميركية للرئيس أوباما ولقاءات كلينتون بعدد من وزراء الخارجية الأميركيين السابقين والمسؤولين الجدد في الإدارة موضوع الجزء الثاني من الفصل الأول "القاع الضبابي: القوة الذكية". وقد تنوعت التحديات الجديدة بين خيبة الأمل من الشعب الأمريكي والشكوك المتعلقة بقدرة الإدارة الأميركية على إدارة العالم. وبعد انتخاب الرئيس الأمريكي عام ٢٠٠٨، أصدر مجلس الاستخبارات القومي تقريراً بعنوان "توجهات عالمية ٢٠٢٥: عالم متحول" تنبأ بانخفاض القوة العسكرية والاقتصادية للولايات المتحدة في السنوات المقبلة، وبأن النظام العالمي الذي حافظت الولايات المتحدة عليه منذ الحرب العالمية الثانية معرض للتهديد من جهة التأثير المتنامي للاقتصادات الناهضة مثل الصين، والدول الغنية بالنفط ومن بينها إيران وروسيا، والكيانات الفاعلة من غير الدول مثل تنظيم القاعدة.

كما انتشرت تحليلات للآثار الكبيرة للأزمة الاقتصادية العالمية و"التمدد الإمبريالي" الأمريكي في الحربين في العراق وأفغانستان بشأن موقع الولايات المتحدة في العالم. وعبرت كلينتون عن تفاؤلها ووصفت هذه التحليلات بـ "المتشائمة" التي قللت من قوة الولايات المتحدة، وقالت إن القوة العسكرية الأميركية والاقتصاد الأمريكي لا يزالان الأقوى من دون منازع، وإن الدبلوماسية الأميركية لا تزال هي الأكثر نفوذاً في العالم، وإن الجامعات الأميركية هي التي تحدد معايير جودة التعليم في العالم، وإن الإدارة الأميركية إن أرادت حل أي أزمة في العالم أمكنها الوصول إلى عدد من الحلفاء والأصدقاء لفعال ذلك. لتختم الفصل برسالة تلقّتها من وزيرة الخارجية الأميركية سابقاً كوندوليزا رايس، أشادت فيها بقدرات كلينتون، ووصفت منصب وزارة الخارجية بأنه "أفضل منصب في الحكومة".

## سياسة المحور

### في منطقة المحيط الهادئ

تطرح كلينتون في الفصل الثاني من الكتاب "عبر المحيط الهادئ" سياسة أوباما الجديدة تجاه آسيا التي وصفها في مقالة لها في مجلة فورين بوليسي بـ "محور آسيا"، وتقول إن الولايات المتحدة استثمرت

كانت أكثر القصص المختلقة عن الكتاب شيوعاً اعتراف كلينتون بتأسيس الولايات المتحدة لتنظيم الدولة الإسلامية (داعش) بهدف تقسيم الشرق الأوسط والسعي لضمان الاعتراف به. وفي الحقيقة لم يرد ذكر تنظيم الدولة في صفحات الكتاب إطلاقاً، بل ورد ذكر تنظيم القاعدة في عدّة مواضع، أهمها تأكيد المؤلفة عدم رغبتها في تكرار سيناريو ثمانينيات القرن الماضي في أفغانستان؛ إذ سلّحت الولايات المتحدة إلى جانب السعودية وباكستان متمردين أفغان ساعدوا على إنهاء الاحتلال السوفياتي لدولتهم، ليقوم بعضهم، ومنهم أسامة بن لادن، بتشكيل القاعدة وتحويل أنظاره تجاه أهداف في الغرب. ولم تكن هذه القصة مخفية في أحد المواقع الإخبارية، فقد انتشرت إلى حد أنها وصلت إلى القول إن وزير الخارجية اللبناني جبران باسيل أخذ الأمر مأخذ الجد وتقدّم بطلب استفسار رسمي للسفير الأمريكي لدى لبنان بشأن ما صدر عن كلينتون في ما يتعلق بموقف الولايات المتحدة من داعش، وطلب تفسيراً بهذا الخصوص.

وُصف تناؤل الكتاب في الإعلام المصري بالهزلي، فقد قيل إن كلينتون اعترفت بدعمها للسياسي في الكتاب، كما قيل إنها مدحت مرسي واعترفت بدعمها له، واختلق مذيع في قناة مصرية عدداً من الأحداث الغريبة التي ورد ذكرها في الكتاب بحسب خياله؛ مثل حدوث مواجهة بين الجيش المصري وأسطول أمريكي، وقيام جنود مصريين بأسر ضابط أمريكي، وتهديد ضابط مصري للرئيس الأمريكي شخصياً. وبذلك شكّل الكتاب - بلا شك - حالة غير مسبوقة من حيث تناوله من أطراف متخاصمة في المنطقة العربية، وهو أمر عزاه بعضهم إلى عدم خضوع وسائل الإعلام التي تغذي ذلك للرقابة أو القضاء.

## محتوى الكتاب

### بداية جديدة

لم تتوقع كلينتون أن يختارها منافسها السابق في حملة الانتخابات الرئاسية باراك أوباما، إلا أنها بعد استشارة زوجها الرئيس السابق بيل كلينتون وعدد من المسؤولين السابقين وافقت على استلام المنصب، وقد قابل أوباما ذلك بقبول شرطها المتمثلين بتوافر خط اتصال مباشر معه والاجتماع به منفرداً متى شاءت، واختيار فريقها كله بمفردها مع أخذ اقتراحات الرئيس في الحسبان. وتتناول كلينتون أهمية اختيارها لأبرز موظفيها، ومنهم دايتون ريتشارد هولبروك الذي اختارته مبعوثاً لأفغانستان وباكستان، والعضو السابق في لجنة تقصي الحقائق بشأن الانتفاضة الثانية في شرم الشيخ جورج ميتشيل الذي اختارته مبعوثاً للشرق الأوسط. وعلى الرغم من إشارة عدد

أفغانستان في أحد اجتماعات غرفة عمليات البيت الأبيض بأنها "في طريقها لتكون أطول حرب في تاريخ أميركا".

وقد وافق أوباما على طلب قائد القوات الأميركية في أفغانستان الجنرال ستانلي مكريستال إرسال ٣٠ ألف جندي لمهام أمنية وخدمات إنسانية ومساعدة الحكومة، مع حد أقصى لانسحاب القوات ١٨ شهرًا. وبدأت الوزيرة كأنها لم تتخذ موقفًا إزاء قرار الرئيس، واكتفت بإشارتها إلى صعوبة تغيير مسار الحرب واقتناعها بأن الرئيس اختار الخيار الصحيح.

تشير كلينتون إلى محاولتها إقحام باكستان في الجهد الهادف إلى تأمين مستقبل أفغانستان، بخاصة بعد انسحاب الولايات المتحدة منها. وتتطرق إلى مفاوضات تبادل بعض الأسرى عقدتها الولايات المتحدة مع كبير مساعدي زعيم حركة طالبان الملا عمر، مضيفه أن الهم الرئيس لطالبان خلال المفاوضات كان مصير مقاتلي الحركة في خليج غوانتانامو، إضافة إلى سجون أخرى. كما تتناول اللقاءات التي قادت إلى التحرك ضد أسامة بن لادن في أبوت آباد بباكستان. وتشير إلى أنه على الرغم من تردد وزير الدفاع روبرت غيتس وشكوك نائب الرئيس جو بايدن في توجيه ضربة لمكان سكن بن لادن، فإنها اعتمدت رأي مدير وكالة الاستخبارات المركزية ليون بانيتا ومستشار الأمن القومي توم دونيلون المتمثل بتوجيه ضربة، مضيفه أنها أوضحت رجوح كفة مكاسب إجراء الضربة على كفة المخاطر.

## بين أمسيات أوروبا والعلاقات الشائكة مع روسيا

يبدأ تناول كلينتون لأوروبا في الكتاب من التدهور الذي أصاب حلف شمال الأطلسي تحت إدارة الرئيس بوش، وكيفية إصلاح هذه العلاقات بإعادة توثيق العلاقات مع الشركاء الأوروبيين للولايات المتحدة، ثم ينتهي بزيارة إلى صديق قديم لها في بيلفاست. إلا أن الفصل المتعلق بأوروبا لا يعدو أن يكون فصلًا اجتماعيًا عددت فيه أصدقاءها في أوروبا وتحدثت عن مآدب العشاء حضرتها، وعن مصافحتها عددًا من الشخصيات. كما أجرت مقارنات متعلقة بمدى التغيير في السياسة الخارجية الأميركية تجاه أوروبا منذ أن كانت السيدة الأولى. وكان مجلس الطاقة الأمريكي الأوروبي أحد أكبر هموم كلينتون بشأن أوروبا. ودافعت عن إعادة العلاقة إلى طبيعتها مع روسيا، إلا أن هذه العملية بدأت تعرف تخبطًا، على عكس ما توقعت، وقد كانت ترى أن العلاقات الأميركية - الروسية تتقدم بنجاح مع الرئيس الروسي في ذلك الحين ديمتري ميدفيديف، إلا أنها أدركت أنها ستدهور بعودة فلاديمير بوتين رئيسًا. لتتوجه إلى أوباما بالنصيحة لدى مغادرتها منصبها بأخذ سياسة أكثر تشددًا تجاه روسيا.

كثيرًا من الموارد طوال عشر سنوات في العراق وأفغانستان، وإن ثمة حاجة إلى سياسة أكثر ذكاءً وتنظيمًا تجاه استثمار الموارد في السنوات العشر المقبلة، ولذلك، ترى كلينتون أن المهمة الأكثر إلحاحًا بالنسبة إلى السياسة الأميركية في العقد المقبل ستكون زيادة الاستثمار الدبلوماسي والاقتصادي والإستراتيجي في منطقة آسيا والمحيط الهادئ. لذلك قررت أن تكون زيارتها الأولى بوصفها وزيرة للخارجية إلى آسيا لتحقيق ثلاثة أهداف، هي: زيارة اليابان وكوريا الحليفيين الرئيسيين للولايات المتحدة في آسيا، وزيارة إندونيسيا القوة الإقليمية الناشئة ومقر رابطة دول جنوب شرق آسيا، وبدء التواصل مع الصين.

وذكرت كلينتون أن الزيارة الأولى لليابان كانت لإيصال رسالة مفادها أن الولايات المتحدة قد عادت إلى آسيا بعد سنوات من التورط في العراق وأفغانستان، مبديةً اقتناعها بأن الولايات المتحدة تحتاج إلى مدخل جديد لآسيا، يُظهر التزامًا أمريكيًا بالعمل على نطاق واسع مع الدول الآسيوية، هدفه الرئيس إظهار أن الديمقراطية هي نموذج أفضل من النموذج الصيني القائم على الاستبداد مع رأسمالية الدولة، واصفةً الصين بأنها بؤرة معاداة الديمقراطية في آسيا.

تركز كلينتون في التورط حول بحر الصين الجنوبي الذي تصاعد قبل شهرين من تولي أوباما منصب الرئاسة؛ إذ تمسكت الصين بمطالبها في الإقليم المائي، وهو ما أثار حفيظة جيرانها الآسيويين فضلًا عن الولايات المتحدة. وذكرت وقوفها إلى جانب فييتنام والدول الآسيوية الأخرى في لقاء رابطة دول جنوب شرق آسيا بالعاصمة الفيتنامية هانوي في تموز/ يوليو ٢٠١٠؛ إذ أصرت فييتنام على طرح مسألة الخلاف المتعلقة بالبحر الجنوبي، على الرغم من رفض الصين، لتتدخل كلينتون إلى جانب فييتنام، مؤكدةً عدم تحيز الولايات المتحدة إلى أي طرف في هذا الصراع، ودعوتها إلى حلّ متعدّد الأطراف وفق القانون الدولي، وإلى إتاحة وصول حرّ إلى بحر الصين الجنوبي والعمل على إيجاد حلّ من شأنه أن يمنع النزاع. ووصفت كلينتون التحول في بورما بأنه من أبرز قصص النجاح لها بوصفها وزيرةً للخارجية. وتحدثت عن تعيين الرئيس الجديد، ووقف بناء السد الصيني على نهر إيراوادي، وخروج زعيمة المعارضة أون سان سو تشي الحائزة على جائزة نوبل من الإقامة الجبرية، واتصال أوباما بها الذي مهّد الطريق لزيارة كلينتون لبورما، وقد كانت أول زيارة لوزير خارجية أميركي لهذا البلد منذ ٥٠ عامًا.

## إرسال قوات إلى أفغانستان والتمهيد للانسحاب

مرّ صيف عام ٢٠٠٩ مرورًا سبيلًا بالنسبة إلى القوات الأميركية، مع ازدياد مقاتلي طالبان والهجمات على قوات الناتو، وتشوّه الانتخابات بالتزوير على نطاق واسع. ونقلت كلينتون وصف أوباما للحرب في

الثوار الذين يبشرون بمستقبل غامض أو حتى استبدادي في المدى البعيد، وبخاصة في مصر، مشيرةً إلى أن موقفها وضعها في مواجهة مسؤولي الإدارة الأمريكية الذين أخذوا بالمثالية وفضلوا التحرك بطريقة أسرع لإطاحة الرئيس المصري حسني مبارك من الحكم. كما تذكر تحذيرها في مداوات الإدارة بشأن التعامل الأميركي مع الاحتجاجات التي ملأت ميدان التحرير وميادين أخرى في مصر، من أن يحصل في مصر ما حصل في إيران، ومن استيلاء المتطرفين على الثورة الشعبية وتأسيس نظام ثيوقراطي.

لم تَغِبْ المفاوضات المكثفة والدقيقة التي قادت إلى بناء تحالف دولي لفرض حظر الطيران في ليبيا وإطاحة معمر القذافي عن الكتاب، فقد ذكرت كلينتون معارضتها في البداية التدخل العسكري الأميركي خوفاً من غرق الولايات المتحدة في الصراع، إلا أن مطالبة الجامعة العربية بفرض حظر للطيران فوق ليبيا أقتعتها بضرورة دخول الولايات المتحدة في التحالف الدولي المتعدد الأطراف لوقف قتل المدنيين. وتشير إلى جهودها في بناء التحالف والدفاع عن أوباما بقوة ضد من يتهمة بـ "القيادة من الخلف" في ليبيا، قائلة إن تحقيق مهمة التحالف الدولي تطبّب قدرًا كبيرًا من القيادة من الأمام ومن الخلف ومن كل اتجاه. كما تتعرض، في تفصيل، إلى الجدل الذي دار حول أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٢ في بنغازي، فتسرد تفاصيل الحادثة متجاهلة أي حديث متعلق بمؤامرة، وتسلب الضوء، على نحوٍ دفاعي، على العواطف السائدة في تلك اللحظات ولقائها أسر الضحايا الأميركيين الأربع في تفجير السفارة، والغضب الذي تسبب به تسييس الحادثة على حدّ تعبيرها.

تسرد كلينتون تطور العلاقة الأمريكية الإيرانية خلال العشرين عامًا الماضية، بدءًا بالانفتاحات الجزئية في فترة رئاسة بيل كلينتون، وتلاشيها تقريبًا في فترة "محور الشر" في إدارة جورج بوش الابن، ثم بداية التقارب الهادئ في فترة توليها وزارة الخارجية. وتشير إلى عدد من النقاط المهمة في التعامل الأميركي مع إيران، ومنها تمرير عقوبات إضافية في الأمم المتحدة عام ٢٠١٠، وتقول إن هذه العقوبات، إلى جانب فتح قناة تواصل خلفية من خلال سلطان عُمان، أعطت الولايات المتحدة فرصةً جديةً لبدء مفاوضات ظهرت إلى العلن في العام الماضي. ولا تُخفي كلينتون ندمها على عدم تقديم الولايات المتحدة دعمًا أكبر للثورة الخضراء عام ٢٠٠٩.

وتتحدث كلينتون عن فشل الدبلوماسية الدولية في معالجة الصراع المنتشر في سورية خلال الفترة ٢٠١١ - ٢٠١٢، بما في ذلك محاولتها حشد كمٍّ من المعارضة لشار الأسد في الأمم المتحدة في كانون الثاني/يناير ٢٠١٢. وتنقل كلينتون لقاءً جمع بوتين بأوباما، في حضورها، تأكيد بوتين أنه لا يمكن مودةً للأسد الذي يتسبب له بصُداعٍ على

## بين القوة الناعمة في أميركا اللاتينية وتكرار الأسئلة المتعلقة بأفريقيا

رأت وزيرة الخارجية الأمريكية سابقًا أن مشكلة المخدرات في أميركا اللاتينية هي مشكلة أميركية أيضًا، وأن مسؤولية معالجتها تقع على عاتق الولايات المتحدة؛ وذلك من خلال العمل على إبقاء كوبا خارج منظمة الدول الأميركية والعمل في الوقت نفسه على زيادة تأثير القوة الناعمة الأميركية فيها، والوقوف مع جمهورية هندوراس بعد مرورها بانقلاب عسكري، ووصفت الرئيس الفنزويلي في ذلك الحين هوغو تشافيز بالدكتاتور الذي يعاني تضخم الذات.

وطرحت كلينتون التساؤل الأبرز الذي شغل وزارة الخارجية الأميركية تجاه أفريقيا في فترة خدمتها وزيرةً للخارجية: كيف يمكن دعم التقدم الحاصل في عدد من الدول وفي الوقت نفسه وقف "الفقر والفساد" المتفشين في المجتمع؟ وقد تضمن ذلك أولويات في المنطقة متمثلة بالعمل على مكافأة الدول التي نجحت في مسعاها نحو الديمقراطية، والتصدي للعمل الذي يقف ضد المرأة، وتوسيع نطاق عمل برنامج الرئيس الأميركي السابق جورج بوش لمكافحة فيروس الإيدز في المنطقة، ومساعدة العوائل الفقيرة والجائعة. وتناولت كلينتون أيضًا التأثير المتنامي للصين في المنطقة، ونفوذ السياسي الحقوقي من جنوب أفريقيا نيلسون مانديلا.

## الفران في الشرق الأوسط

عنونت كلينتون الفصل الذي يتناول الشرق الأوسط بـ "الفران". وتتبع في الجزء الأول منه، وهو بعنوان "الطريق الصخري للسلام"، روابطها العميقة وانخراطها في جهد تحقيق السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين؛ إذ تؤكد استثمارها الشخصي إلى جانب كثير من الأميركيين في أمن إسرائيل ونجاحها. وتحرص في ذلك على تقديم نفسها على أنها شخصية مفضلة منذ وقت طويل لدى كل من الفلسطينيين والإسرائيليين، وأنها متحمسة لحلّ الدولتين. إلا أنها بعد جولة من المحادثات الصعبة والشائكة، تعترف بأن توقعات تحقيق سلام قد باتت خافتة، وتختتم بأملها أن يقرّر الطرفان السعي للسلام على نحو أكثر جديةً.

وتعترف كلينتون في فصل "الربيع العربي: الثورة" بأن الإدارات الأميركية المتعاقبة دأبت في تقديم القضايا الأمنية والإستراتيجية الملحة؛ مثل مكافحة الإرهاب، ودعم إسرائيل، وكبح طموحات إيران النووية، في أولوية سياستها الخارجية على تشجيع الإصلاحات الداخلية في الدول العربية، وأنها لم تنظر في قطع العلاقات العسكرية معها. وتقول إنها كانت دائمًا شديدة الحذر تجاه الوقوف في صف

لإطلاق النار في الشرق الأوسط. وكان التحدي الأكبر بالنسبة إليها في تلك المهمة كسب موافقة مرسى على وقف إطلاق النار في غزة، لتتوسط في المحادثات المتوقفة بين إسرائيل ومصر التي كانت تمثّل حماس.

وتقول كلينتون إنّ التاريخ أقحم الزعيم الذي لم يُختبر محمد مرسى "من الغرفة الخلفية إلى الكرسي الضخم"، مشيرةً إلى أنّه كان من غير الواضح إن كان سيضطلع بدور رجل الدولة، وإن كان يملك المؤهلات لذلك. وتشير إلى أنّها أقنعت إسرائيل بالموافقة على اتفاق لوقف إطلاق النار، وأنّها راجعت الاتفاقية مع مرسى سطرًا سطرًا، لتتوقع الاتفاقية على عكس التوقعات. وتكتفي كلينتون بالإشارة إلى تظاهر الملايين من المصريين ضدّ تجاوزات حكومة مرسى وتدخل الجيش لخلعه والبدء في حملة عنيفة على الإخوان المسلمين، وتختتم بأن آفاق الديمقراطية في مصر لا تبدو مشرقة؛ فالسياسي يخوض الانتخابات الرئاسية أمام معارضة شكلية، ويبدو أنّه سيتبع النموذج الكلاسيكي للحكم التسلسلي في الشرق الأوسط.

## مسودة لحملة الانتخابية

أفضل ما يمكن أن يستفيد منه القارئ في هذا الكتاب هو تعرّف المسار الذي ستسلكه كلينتون تجاه السياسة الخارجية في حملتها الانتخابية؛ وذلك من خلال فصول الكتاب والأفكار التي طرحتها حول كلّ قضية من قضايا السياسة الخارجية، بصورة السياسية ذات الروح القتالية العالية التي عادت من هزيمة عام ٢٠٠٨، لتكون صاحبة رؤية أوضح للولايات المتحدة. وقد وصف بعض النقاد الكتاب بأنه مسودة ذكية لبرنامج انتخابي يطرح رؤية كلينتون لمستقبل الولايات المتحدة. اختتمت كلينتون كتابها بالحديث عن ملفات غير متعلّقة بالسياسة الخارجية في المقام الأول، في فصل خصّصته لمستقبل الولايات المتحدة، وهو أمر لا يمكن إلا أن يندرج في مسودة لبرنامجها الانتخابي؛ إذ أكّدت التزامها بمواجهة التغير المناخي، مشيرةً إلى أهمية الدور الذي اضطلعت به في إيجاد اتفاقية دولية لتقليل انبعاثات الكربون، وركّزت في القضاء على البطالة وتسويق المنتجات الأمريكية. وذكرت في هذا الصدد إقناعها الحكومة الجزائرية بتوقيع عقد ضخّم مع شركة جنرال إلكتريك الأمريكية للمساعدة في بناء ستة حقول للغاز الطبيعي، وصرّاعها مع الصين، وإدارة الرئيس بوش لمساعدة مصنع زجاج أميركي. كما تناولت حقوق المرأة وتعزيز دورها في المجتمع.

حدّ قولها، واعترافه بأنّ روسيا لا تملك اليد الطولى في نظام الأسد. لتستدرك ذلك بأنّها لا تثق بكلام الروس، ولا بأفعالهم. كما تُورد توجهها بالسؤال لوزير الخارجية السعودي في ذلك الحين سعود الفيصل بشأن إمكان إقناع الأسد بوقف العنف وبدء انتقال سياسي وكسب دعم موسكو للتعاون على ذلك، فأجاب بالنفي قائلاً إنّ عائلة بشار الأسد لن تسمح له وبخاصة أمه، فهو حريص على إبقاء مكانة العائلة واتباع النهج الوحشي لوالده.

ويذكر الكتاب مخاوف كلينتون المبكرة من تسليح الثوار وتحذيرها من صعوبة السيطرة على السلاح حالما يدخل إلى سورية. وتصف كلينتون سورية بأنّها "مشكلة شريفة"، وهو مصطلح قالت إنّ خبراء التخطيط يستخدمونه لوصف تحديات معقّدة جوابها الصحيح نادر الوجود وكلّ خيار لحلّها يبدو أسوأ ممّا بعده؛ إذ تقول: "إن لم تفعل شيئًا، فإنّ أزمة إنسانية ستنتشر في المنطقة. وإنّ تدخلت عسكريًا، فقد ينفجر أمامك مستنقع آخر مثل العراق. أمّا إذا أرسلت الدعم للثوار، فإنّ هذا الدعم سينتهي أمام ناظريك بيد المتطرفين. وإن اعتمدت الدبلوماسية، فستواجه الفيتو الروسي. وعلى الرغم من كلّ ذلك، فلا بد من مواصلة جميع هذه المسارات".

تتناول كلينتون خطة متعلّقة بتدريب مجموعة من الثوار المعتدلين خلصت إليها بعد نقاش في تموز/ يوليو ٢٠١٢ مع مدير وكالة الاستخبارات المركزية في ذلك الوقت ديفيد بيترايوس ومع الحكومة التركية في الشهر التالي. وترى كلينتون أنّ من شأن تدريب مجموعة من الثوار - ولو كانت صغيرة - أن يكون له تأثير نفسي إيجابي في الثوار، وأن يدفع الأسد إلى حلّ سياسي، مشيرةً إلى أنّ حزب الله نجح بذلك في تعزيز موقف الأسد بعد نشره بضعة آلاف من المقاتلين الجيدين. وتشير، نقلًا عن إحدى مداواتها مع الرئيس أوباما وبيترايوس، إلى حديثها عن وجود فرق كبير بين ضخّ السعودية وقطر السلاح إلى سورية وتدريب الولايات المتحدة مجموعة غير متطرفة من الثوار وتجهيزها، وإلى أنّ ذلك ليس لهزيمة الأسد، بل لإيجاد شريك على الأرض يمكن التعامل معه ويكون كافيًا لإقناع الأسد وداعميه باستحالة تحقيق نصر عسكري، واصفةً الخطة بأنها الخيار الأقل سوءًا. ولم تتمكن كلينتون أو أيّ مسؤول آخر في الإدارة من تغيير رأي أوباما في تلك الفترة.

وتتحدث كلينتون عن دورها التفاوضي بعد ما وصفته بـ "اندلاع القتال بين مقاتلي حماس وإسرائيل في قطاع غزة" في خريف ٢٠١٢، واصفةً الأزمة بأنّها اختبار مهمّ للقيادة الأمريكية. وتشير إلى تركها رحلة مهمةً إلى جانب الرئيس الأميركي في وقت متأخر من تشرين الثاني/ نوفمبر، وأنها ذهبت في رحلة طارئة إلى التوسط من أجل وقف

عزام أمين\*

## مراجعة كتاب

# كيف يكون الخلاص من الاستلاب الجهادي؟

عنوان الكتاب في لغته: Comment Sortir de l'Emprise Djihadiste?

عنوان الكتاب: كيف يكون الخلاص من الاستلاب الجهادي؟

المؤلف: دنيا بوزار.

سنة النشر: ٢٠١٥.

الناشر: Les Éditions de l'Atelier.

عدد الصفحات: ١٥٥ صفحةً.

\* أكاديمي سوري، حاصل على درجة الدكتوراه في علم النفس الاجتماعي - جامعة ليون الثانية في فرنسا.

مُجَنَّدِينَ يعرفون جيّدًا الإشكاليات الوطنية الفرنسية، لأنهم تربوا في فرنسا ويفكرون بالطريقة الفرنسية ويعودون في نقاشاتهم إلى المسائل الجدلية أو المحرمات الفرنسية، على نحوٍ يمكنهم من كسب ثقة الأشخاص المستهدفين بالتجنيد" (ص ٢٢).

وبعد استعراض بعض المصطلحات السياسية والصحافية وتعريفاتها الإيستمولوجية؛ كمصطلح "التطرف الإسلامي"، و"الإسلام السياسي"، و"الإرهابيين"، و"المؤدلجين"، و"النازيين الجدد"، و"المتعصبين" و"الجهاديين"، تذكر بوزار أنها تفضّل استخدام مصطلحي "المُجَنَّدِينَ" و"التجنيد"، وتشرح ذلك بناءً على أنّ التجنيد هو صيرورة نفسية تتضمن عدّة مراحل متدرجة قبل أن يلتحق الشاب أو الشابة بجهة النصر، أو بتنظيم داعش في سورية والعراق. وتقول الباحثة إنّ تأكدها من وجود هذه الصيرورة يرجع إلى عملها في مركز "الوقاية من الانحرافات الطائفية المتعلقة بالدين الإسلامي"؛ إذ كان يتطلب منها الالتقاء بعائلات الشباب المجندين والنقاش وقتًا مطولًا معهم.

وترى بوزار أنّ الخطر لا يكمن في ذهاب المجندين إلى سورية والعراق ولا في عودتهم؛ ذلك أنّ عودتهم في حدّ ذاتها تدل على تراجعهم وصدمتهم تجاه الواقع الذي عايشوه. وفي المقابل ترى أنّ الخطر الفعلي يكمن في أولئك المجندين الذين لم يتركوا فرنسا بعد، والذين يصعب كشفهم؛ لأنهم لا يتصرفون في أغلب الأحيان كمتطرفين إسلاميين، ويشكّلون خلايا نائمةً في المجتمع الفرنسي. لهذا، فإنّ مواجهة ظاهرة التجنيد الجهادي لا تكون من خلال منع الشباب من الذهاب إلى سورية والعراق للالتحاق بداعش، ولا بإلقاء القبض عليهم حال عودتهم، بل بمنع وقوع الشباب تحت تأثير الخطاب الإسلامي الراديكالي وسيطرته.

وقبل أن تبحث الكاتبة مراحل التجنيد والآليات النفسية المستخدمة للسيطرة على الشباب المجندين، تورد إحصائيات مهمّة تشير إلى أنّ ضحايا ظاهرة التجنيد الجهادي هم من أصول اجتماعية ودينية شتّى، وذلك على عكس النظرة النمطية التي توجّه إصبع الاتهام إلى الشباب الفرنسي من أصول مسلمة. وتبيّن كذلك أنّ الخطاب الإسلامي الراديكالي يستطيع الوصول إلى شباب غير مسلمين من طبقات اجتماعية غنية، وهو أمرٌ يناقض النظرة النمطية الشائعة التي تشير إلى فقراء الضواحي من المسلمين، وتؤكّده الأرقام<sup>(٤)</sup>، فقد أحصى "مركز

حاز كتاب دنيا بوزار<sup>(١)</sup> كيف يكون الخلاص من الاستلاب الجهادي؟ عام ٢٠١٥ جائزة "الإكسبريس"<sup>(٢)</sup>، وهي من الجوائز الأدبية المهمة في فرنسا. ويتناول هذا الكتاب ظاهرة استقطاب الحركات الأصولية الإرهابية للشبان الفرنسيين وتجنيدهم في صفوفها وتكليفهم بمهام خطيرة في فرنسا نفسها، أو إرسالهم إلى القتال في سورية والعراق وغيرهما من الجبهات. وفي سياق محاولة تقديم حلول لتلك الظاهرة، تبحث الكاتبة في مراحل التجنيد الجهادي وإستراتيجياته وكيفية مواجهة هذه المشكلة.

وفي مستهل الكتاب، تقدّم الكاتبة نفسها بوصفها باحثةً أنثروبولوجيةً وتربويةً تهتمّ بتأثير التمييز ومشاعر الظلم في الإنسان. وتؤكّد أنها لا تتطرّق البتّة إلى الإسلام بوصفه دينًا، ولا تدخل في نقاش متعلّق به، وأنها تهتمّ بالخطاب السياسي الإسلامي الراديكالي وتأثيره في الشباب في فرنسا. وهي ترى أنّ المتطرفين يحوّلون مشاعر الإهانة والظلم التي يعانها بعض الشباب الفرنسي إلى مشاعر قوّة وانتقام؛ إذ تقول: "المتطرفون يحوّلون مشاعر الدلّ والدونية إلى شعور بالقوّة: إنّ كنت تشعر بعدم الارتياح مع الآخرين (أصدقائك، ووالديك، وأساتذتك.. إلخ)، فذلك لأنّ الله اختارك كائنًا متفوقًا يملك الحقيقة. خلافاً مع المجتمع هو أمرٌ طبيعيٌّ: أنت مختلف عن الآخرين، لأنك أكثرهم بصيرةً" (ص ١٢).

وتشير الكاتبة إلى أنها كانت تحاول في مسيرتها المهنية الإجابة عن الأسئلة التالية: لماذا يزداد تأثير الخطاب الأصولي الإسلامي في أوساط الشباب الفرنسي؟ وكيف يستطيع الخطاب الإسلامي المتطرف التأثير في شخص يشعر بالعزلة والمهانة؟ وهل يكون ذلك من خلال إعطائه مكانةً وإحساساً بأنه ليس وحيداً؟ وتشير أيضًا إلى أنها لاحظت من خلال عملها في مركز "الوقاية من الانحرافات الطائفية المتعلقة بالدين الإسلامي"<sup>(٣)</sup> أنه جرى تكييف التجنيد وأساليبه مع الثقافة الفرنسية، فتقول "يجري تجنيد الفرنسيين بخطاب فرنسي، عبر

١ دنيا بوزار Dounia Bouzar، باحثة فرنسية أصبحت عام ٢٠٠٣ عضوًا في المجلس الفرنسي للدين الإسلامي، ولكنها قدمت استقالتها عام ٢٠٠٥ احتجاجًا على تسييس هذا المجلس. وتعمل منذ عام ٢٠٠٥ مستشارةً في معهد الدراسات العليا للدفاع الوطني، وقد حصلت على شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا من جامعة باريس الثامنة عام ٢٠٠٦. وساهمت مع عدد من علماء الاجتماع والنفس والتربويين عام ٢٠١٤ في تأسيس "مركز الوقاية من الانحرافات الطائفية المتعلقة بالدين الإسلامي" CPDSI، ومن أهم مؤلفاتها كتاب فرنسية ومسلمة الذي صدر عام ٢٠٠٢، ما الذي يغطيه الحجاب؟ الذي صدر عام ٢٠٠٤، العلمانية، طريقة العمل الذي صدر عام ٢٠١٠، وكتاب إسلام الضواحي الذي صدر عام ٢٠٠٧، بحثوا عن الجنة فوجدوا جهنم الذي صدر عام ٢٠١٤؛ وهو في موضوع الجهاديين الفرنسيين في سورية، تفكيك الخطاب الإسلامي المتطرف الذي صدر عام ٢٠١٤ أيضًا.

2 Prix de l'essai de L'EXPRESS.

3 Centre de Prévention contre les Délices Sectaires liées à l'Islam.

٤ ينبغي التعامل مع هذه الإحصائيات وتعميمها بحذر، فهي تمثّل العائلات التي بادرت إلى الاتصال بمركز الوقاية ولا تمثّل كلّ العائلات الفرنسية التي لديها أبناء وقعوا ضحايا للتجنيد الجهادي. وقد أشارت الباحثة دنيا بوزار نفسها إلى هذا الأمر في أكثر من مقابلة تلفزيونية.

منطق المواجهة ومحاربة الظلم لإنقاذ الضحايا، ومنطق الفاعل. فلا سبيل إلى تغيير النظام ومواجهة المؤامرة وإنقاذ البشر إلا بالمجابهة.

وتؤكد بوزار أنّ معظم الشباب والشابات جرى تجنيدهم من خلال الإنترنت، فلقد أدرك الخطاب الراديكالي الإسلامي أنّ هذه الوسيلة ناجعة للدعاية والاستقطاب؛ لأنها تسمح بتجاوز قيود الزمان والمكان. وتوصلت الباحثة، من خلال عملها، إلى ثلاثة أنواع من الفيديوهات التي يجري تداولها في هذه المرحلة الافتراضية، وهي:

- الفيديوهات التي تركز في فساد النظام العالمي.
- الفيديوهات التي تركز في مجموعات سرية تسير الأمور بحسب مصلحتها (شهود يهوه، والماسونية، وماقيات اقتصادية، واستخبارات عالمية، وموساد.. إلخ).
- الفيديوهات التي تحثّ على المواجهة.

وبعد تحليل عشرات الفيديوهات الدعائية تبين للباحثة أنّ قوتها تكمن في جلب المشاهدين الشباب الذين لا أسئلة دينية لديهم أو روحية، وأنهم يكونون في البداية ناقمين باحثين عن معركة ضدّ الظلم في العالم. وسرعان ما تدفعهم هذه الفيديوهات إلى الغرق في تصور للعالم بأنه محكوم كله بالكذب والمؤامرات، ثم يخرجون وهم على يقين بأنّ الخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) ما هو إلا جزء من المؤامرة الكبرى، وأنّ قوى الشرّ الشيطانية تهاجم الإسلام؛ لأنه يمثل آخر معقل يمكنه الوقوف أمامها ومكافحتها. وفي هذا السياق يدخل الراديكاليون في ذهن الشاب أنّ الالتحاق بهم هو الطريق الوحيد إلى تهديم تلك التكتلات السرية التي تريد تحطيم الإنسانية.

ولاحقاً تقدّم للشباب مساحة افتراضية بديلة تفوق كلّ المساحات الحقيقية: أناس يتحدثون معهم ويحاورونهم ويشعرون بشعورهم نفسه. وكثيراً ما يتوجه الخطاب الراديكالي إلى شباب ذوي بنية نفسية ضعيفة ويشعرون بأنهم لا ينتمون إلى أيّ مكان ويعانون أزمة هوية. فيرى الشاب الذي يشعر بأنه من أصل جزائريّ، أو مغربيّ، أو فرنسيّ أيضاً، أنه محميّ من خلال سلطة هذا الخطاب الذي يمنحه قوّة الانتماء إلى الجماعة والشعور بالتفوق على الآخرين لأنه يعرف الحقيقة. وفي النهاية يتوحد الشاب مع هذه الجماعة بعد أن يجتاز ثلاث مراحل، هي:

- مرحلة تحديد الجماعة وتعريفها: تعطي الجماعات الأصولية الشاب إحساساً بالقدسية والهيبة؛ لأنها تعيد تحديد علاقة

الوقاية من الانحرافات الطائفية المتعلقة بالدين الإسلامي " ٤٠٠ عائلة فرنسية التحق أبناءها أو بناتها بالجهاد في سورية والعراق، منها ٤٠٪ من العائلات ملحدة، و٤٠٪ كاثوليك، و١٩٪ مسلمة و١٪ يهودية. أما من حيث العمر، فإنّ ٣٠٪ من الشباب قاصرون، و٣٩٪ منهم تراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢١ عاماً، و٣١٪ أعمارهم بين ٢١ و ٢٨ عاماً. ولم تتصل حتى الآن بالمركز أيّ عائلة يزيد عمر ابنها أو ابنتها عن ٣٠ عاماً. وأما من حيث الجنس، فإنّ نسبة الفتيات تساوي نسبة الفتيان. ومن حيث الوضع الاجتماعي، ينتمي ٥٩٪ من العائلات إلى الطبقة المتوسطة، و٣٠٪ منها إلى الطبقات الشعبية، و١١٪ منها إلى الطبقات العليا.

لقد أُلقت السلطات الفرنسية القبض على ٣٠ فتاةً تراوح أعمارهن بين ١٣ و ١٧ عاماً أثناء محاولتهنّ الذهاب إلى سورية. وتُشير الأرقام الرسمية التي قدمها رئيس الوزراء الفرنسي مانويل فالس في هامش مؤتمره الصحفي الذي عقد في التاسع عشر من آذار/ مارس ٢٠١٥ إلى وجود ١٩٠٠ جهادي أو شخص واقف تحت تأثير الخطاب الجهادي، استطاع ٧٧٠ واحداً منهم الالتحاق بداعش والنصرة. وقد عاد قسم منهم، وبقية ٤٢٠ شخصاً، منهم ١١٩ امرأة. وأكد فالس وجود نحو ٣٠٠ جهادي فرنسي في تركيا يحاولون العبور إلى سورية، وأشارت هيئة مراقبة الإنترنت إلى وجود نحو ١٢٠٠ ملفّ شخصي يشكّل كلّ منها حالةً خطيرةً من خلال نشر رسائل وفيديوهات تساند المجموعات الإرهابية.

وتخصص الكاتبة الفصول الثلاثة من الباب الأول من كتابها لشرح الآليات النفسية وآليات الإقناع العقلية المستخدمة في السيطرة على هؤلاء الشباب. وتشير إلى أنّ الاستقطاب يجري أوّلاً من خلال الإنترنت؛ أي قبل أي لقاء وجهاً لوجه. وفي هذا السياق تتجلى مرحلة افتراضية مهمتها نزع ثقة الشاب في المجتمع وفي زملائه، ومن ثمّة يشعر بإحساس الجماعة الجهادية نفسه وبالتطابق معها؛ إذ تحلّ هويتها محلّ هويته الشخصية الفردية. لذلك يجب إقناعه بنظرية المؤامرة، وبأنّ كلّ شيء مدبّر ومدروس من الأقوياء ضدّ الضعفاء. فالعالم يعاني الظلم والاستغلال والنهب والدعاية الكاذبة، وأحداث ١١ سبتمبر مدبّرة، وكذلك مرض السيدا، والشركات الكبرى تتأمر على العالم لبيع منتوجاتها، وأميركا تراقب العالم، والقوى الرأسمالية تسيطر على كلّ شيء. ولا يجري التطرّق في هذه المرحلة إلى أيّ جانب روحي أو ديني، وإنما يجري التركيز في المؤامرة، وفي مشاعر الظلم حتى يصبح الشخص المستقطب شيزوفرانياً يرفض الواقع الظالم. وبعد ذلك ينتقل الخطاب من منطق الضحية العاجز أو المفعل به، إلى

من الوقوع تحت تأثير الخطاب الجهادي وإنه لا يمكننا التركيز في الجانب النفسي وإهمال الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أو العكس. وعلى الرغم من تعقيد المشكلة، تشير الكاتبة إلى نوع من العلاج، يعتمد منهجاً عابراً للاختصاصات ويأخذ في الحسبان العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، توصلت إليه من خلال عملها في "مركز الوقاية من الانحرافات الطائفية المتعلقة بالدين الإسلامي"، ومن خلال لقاءها عديد الشباب الذين وقعوا ضحايا هذا الخطاب.

وقبل الحديث عن مراحل العلاج، يجب أن يعرف المعنيون بتقديم المساعدة للشبان أن عليهم أولاً إرصاد ضروب سلوك القطيعة التي تظهر عند المراهقين والمراهقات، وعدم خلطها إطلاقاً مع بداية تدني ما أو التحوّل إلى دين آخر. ويجب عليهم معرفة الوظيفة النفسية التي يقوم بها الدين بالنسبة إلى هؤلاء الشباب. ويجب عليهم أيضاً اجتناب إساءة النصح أو محاولة الدخول في نقاش أيديولوجي أو ديني مع هؤلاء المراهقين لإثبات عدم صحة وجهة نظرهم. فهذا الفعل لن يزيدهم إلا تمسكاً بأفكارهم واقتناعاً بنظرية المؤامرة؛ ذلك أن أحد أهمّ مراحل الأدلجة والتجنيد الجهادي يقوم على أن تقديم النصح لك وإثبات عدم صحة أفكارك ليس إلا جزءاً من المؤامرة. فضحايا الخطاب الجهادي عقولهم مغيبّة تماماً ومشاعرهم هي التي تقودهم، لذلك لن ينفع معهم خطاب المعرفة والعقل. وأخيراً، يجب على المعنيين بتقديم المساعدة لهؤلاء الشباب أن يتعاملوا مع كلّ مراهق أو مراهقة بوصفها حالةً فرديةً.

العلاج الذي تقترحه الباحثة قائم على إحياء المشاعر والعواطف التي تستطيع أن تُعيد للشباب المجدد شخصيته المسلوقة وتساعد على فهم الصيرورة التي قادته إلى التجنيد؛ وذلك انطلاقاً من تجربته الشخصية ومن خبرته الفردية. وإنّ الخطوة الأولى التي يعتمد عليها هذا العلاج، بحسب الباحثة، هي الخروج من حالة القطيعة التامة مع المحيط الاجتماعي التي فرضها الخطاب الإسلامي المتطرف على الشاب أو الشابة، ويجري ذلك من خلال إعادة إحياء الروابط العائلية ومشاعر الانتماء الاجتماعي، من خلال البحث عن العوامل التاريخية العائلية والاجتماعية التي ساهمت في بناء شخصية الشاب أو الشابة. وتقترح بوزار العمل على إعادة العلاقة بالوالدين وإحياء مشاعر الحب والحنان تجاههما في مرحلة أولى، ومن ثمّ إحياء العلاقات الاجتماعية مع الأصدقاء والزملاء في مرحلة ثانية. ويجري ذلك من خلال الحديث عن الذكريات القديمة، وقصص أصدقاء الطفولة، والبحث عن معايير وقيمٍ مشتركة. وتشير الكاتبة إلى أن

الشباب بنفسه وبالآخرين، فتمنحه هويةً اجتماعيةً معروفةً ومحددةً.

- مرحلة الانقطاع عن المحيط الاجتماعي: لا يكتفي الخطاب الراديكالي بالتركيز في الجماعة نفسها، وفي رئيسها (شيخ، أو مكانة سياسية.. إلخ)، وفي نقاط التشابه بين أفرادها، بل يركّز أيضاً - على نحوٍ مستمرٍّ ودائمٍ - في نقاط الخلاف والاختلاف مع الآخرين (العائلة، والأصدقاء، ورفاق المدرسة ونحوهم) حتى يصل الشاب إلى مرحلة الانقطاع التام عن محيطه الاجتماعي.
- مرحلة محو الهوية الفردية (Dépersonnalisation): يدفع التركيز في نقاط التشابه بين أعضاء الجماعة الشاب إلى أن يشعر بأنه يتحدث باسم الجماعة ويمثلها. وهكذا تضمحل الهوية الفردية ويصبح "الأنا" نحن.

وفي ثالث فصول الباب الأول تتطرّق الكاتبة إلى آليات الإقناع التي يجري استخدامها في الفيديوهات، وأهمها الرسائل المبطنة غير المباشرة ومشاهد العنف. وتشير في البداية إلى أن جميع العائلات التي تواصلت معها بشأن أبنائها صرّحت بأنه كان لديهم نوع من الإدمان على الإنترنت، وعلى وسائل التواصل الاجتماعي. ثمّ تُبين أن التجنيد يبدأ باستخدام فيديوهات بسيطة ومعروفة وألعاب افتراضية شائعة أيضاً. وهكذا يجري التواصل مع الشاب أو الشابة بطريقة تجعله يُدمن علاقته الاجتماعية الافتراضية. ثمّ يجري الانتقال من مرحلة الألعاب الافتراضية والفيديوهات المعروفة إلى مرحلة الفيديوهات التي تحتوي رموزاً من التاريخ الإسلامي (رمزية سورية وبلاد الشام المحببة إلى الرسول ونحو ذلك) حتى يصل الإدمان بالشاب إلى أن يتحدث باسم الله. ويجري كذلك التدرج بمشاهد العنف من مرحلة العنف الجسدي البسيط إلى مشاهد الذبح والدم، حتى يصل الشاب إلى مرحلة "اللاحدود في العنف وتقبله"، بعد أن يتمّ القضاء على كلّ العقبات النفسية الإنسانية في وجه العنف. وتهدف هذه المرحلة إلى التحكم الذهني في الشاب من جهة، وإلى نزع الصفة الإنسانية عن الأعداء من جهة أخرى، ومن ثمّ تُقبل فكرة التخليص العرقي أو الديني، أو قتل كلّ من يخالف الجماعة حتى لو كانوا من المسلمين، فهؤلاء أخطر من غيرهم لأنهم، في نظرهم، خونة وعملاء.

وبعد تفكيك أساليب الأدلجة والتجنيد ومناهجها، تُكرّس الباحثة الباب الثاني من الكتاب بفصوله الثلاثة للبحث في مسألة مواجهة هذه الظاهرة. وتقول بوزار إنه لا توجد صفة سحرية لمنع الشباب

داعش حرباً دينيةً لا يريدون رؤية هذه الحقيقة، وأوضحت أنّ التجنيد لا يجري في الجوامع حصراً، وأنّ بعض الشباب الذين كانوا على وشك القيام بأعمال إرهابية باسم داعش ليسوا مسلمين، وأنّ منهم من لم يلتق أيّ شخص مسلم، وأكدت أنّ ضحايا ظاهرة التجنيد الجهادي من الشباب والشابات من أصول اجتماعية ودينية متعدّدة.

غير أنّ ما يمكن أن تؤاخذ به الكاتبة أنها لم تعمّق، على نحوٍ كافٍ، تحليل إستراتيجيات التواصل والإقناع والتأثير؛ أي الإستراتيجيات الدينامية النفسية التي يُخاطب من خلالها الشباب والشابات، نفسياً ووجدانياً وعاطفياً، سواء كان ذلك عبر اللغة أو الصورة. يُضاف إلى ذلك أنها لم تتطرّق، على نحوٍ معمق أيضاً، إلى الأبحاث التي درست ديناميات الجماعة وأنواعها وتأثيرها في سلوك الفرد واتجاهاته؛ وذلك مع العلم أنها أشارت إلى أهمية تجارب سالمون آش<sup>(5)</sup> المتعلقة بالامتثال والوقوع تحت سيطرة الجماعة، وإلى تجارب ستانلي ميلغرام<sup>(6)</sup> المتعلقة بالطاعة للسلطة، وإلى تجربة فيليب زيمباردو في سجن ستانفورد<sup>(7)</sup>.

سيشعر المتخصص بعلم النفس الاجتماعي، أو علم الاجتماع وسيبسيولوجيا التواصل، عند قراءته هذا الكتاب الذي كان يمكن إغناؤه بعدّة تجارب ودراسات بنوع من الإحباط وخيبة الأمل. ولكنّ هذه النقطة بالتحديد قد تكون إيجابية في الوقت نفسه، فهي تسمح للكتاب بالوصول إلى أوسع شريحة في المجتمع الفرنسي، ولا تجعله مقتصرًا على المتخصّصين بالعلوم النفسية والاجتماعية، وقد كان هذا الأمر، بالنسبة إلى الباحثة التي أشارت إليه في خاتمة كتابها، أحد أهدافها الأولية.

يعدّ هذا الكتاب مساهمةً مهمّةً في فهم الآليات والإستراتيجيات التي يستخدمها الخطاب الراديكالي الإسلامي في تجنيد الشباب والشابات، وليس ذلك في فرنسا والغرب فحسب، بل في كلّ من سورية والعراق وسائر الدول العربية أيضاً. فأغلب الظنّ أنّ معظم تلك الآليات والإستراتيجيات وطرائق التعامل معها على درجة كبيرة من التشابه في جميع الدول.

المشكلة الكبرى في هذه المرحلة التي تشكّل عقبةً رئيسةً تحول دون نجاح هذه العلاج هي غياب الوالدين، سواء كان ذلك بسبب حالة صحية أو اقتصادية، أو الموت، أو بسبب إنكار وجود المشكلة أساساً. أمّا المرحلة الثانية من العلاج، فتبدأ بعد عودة المشاعر العائلية والاجتماعية، وتسمّيها بوزار مرحلة المواجهة مع الحقيقة، وهي تهدف إلى إعادة الشاب إلى الحياة الحقيقية وإخراجه من الوهم الذي كان يعيش فيه، وإعادة المشاعر الإنسانية إليه بعد أن جرد منها. ويجري ذلك من خلال إدراكه للإستراتيجيات النفسية التي استعملها معه الخطاب الراديكالي الإسلامي من أجل إقناعه والسيطرة عليه. وتذكر الباحثة أنّ أحد أهمّ آليات العلاج التي تسمح بتحقيق أهداف هذه المرحلة هي لقاء شباب وشابات تخلصوا من تأثير الخطاب الجهادي وعقد ندوات وورشات عمل معهم.

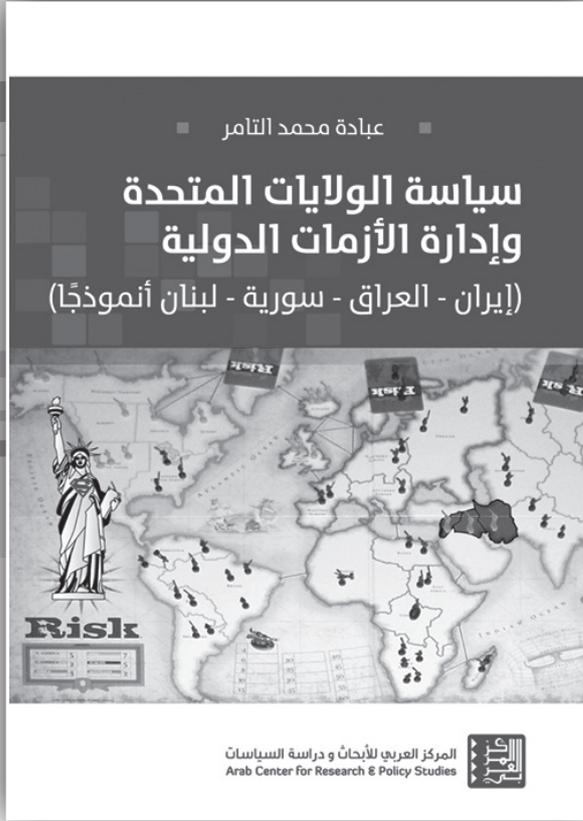
وأما المرحلة الثالثة - وهي الأخيرة - فهي مرحلة ما بعد التخلص من التجنيد وعودة الشاب أو الشابة إلى الحياة الواقعية. وتقول الباحثة إنّ هذه المرحلة صعبة جداً بالنسبة إليهما؛ إذ يعانيان في التخلص من تأثير الخطاب الجهادي شعوراً بخيبة الأمل وفقدان الثقة بالنفس وبالأخرين. والأشدّ خطراً من ذلك هو الشعور بالوحدة والفراغ اللذين كثيراً ما يؤدّيان إلى نوع من الاكتئاب. فالشعور بالانتماء إلى الجماعة الأصولية التي اختارها الشاب، وما يرتبط به من إحساس بالقدسية والهيبة والثقة بالنفس، والعلاقات الاجتماعية الافتراضية التي عاشها، ومشروع مقاومة الظلم، من العوامل التي أعطته نوعاً من الإحساس بالمعنى والجدوى لحياته. ولكن هذا الإحساس ينتهي حين يدرك الشاب أنّ كلّ ذلك لم يكن إلّا وهمًا. وتُشير الكاتبة إلى أنّ الدعم النفسي أمرٌ ضروريٌّ جداً في هذه المرحلة، وإلى أنه يجب على الأهل والمربين أن يقدّموا هذا الدعم بالتعاون مع معالجين نفسانيين يستطيعون تقديم النصائح له ولهم وتوجيههم.

يعدّ هذا الكتاب من الكتب المهمة، لفهم الآليات والإستراتيجيات المستخدمة في تجنيد الشباب في الحركات الإسلامية الأصولية. فبقراءته يمكن أن نصل إلى إجابة عن السؤال: لماذا يترك شباب وشابات الحياة في الغرب المُرفّه، ليأتوا ويقاتلوا مع النصرة وداعش، في سورية والعراق وغيرهما من الأماكن؟ فقد استطاعت الكاتبة إظهار عدم صحة الأفكار الشائعة المتعلقة بظاهرة الجهاديين الأوروبيين بوجه عامّ، والفرنسيين بوجه خاصّ، وأوضحت أنّ حرب تنظيم الدولة الإسلامية "داعش" ليست حرباً دينيةً، بل هي حرب أيديولوجية، ولذلك بدأ التنظيم مجازره بالمسلمين الذين لم يوافقوا على أيديولوجيته الشمولية، وتذكر الكاتبة أنّ الذين يعدّون حرب

5 Solomon E. Asch, "Opinion and social pressure. Scientific American," *Scientific America* (1955), pp. 193, 31 - 35.

6 Stanly Milgram, *Soumission à l'autorité* (Paris : Calmann-Lévy, 1974).

7 P. G. Zimbardo et al., "The mind is a formidable jailer: A Pirandellian prison," *The New York Times Magazine*, pp. 36 ff; C. Haney & C Banks & P Zimbardo, "Interpersonal dynamics in a simulated prison," *International Journal of Criminology and Penology* (1973), vol. 1, pp. 69 - 97.



## صدر حديثاً

عبادة محمد التامر

### سياسة الولايات المتحدة وإدارة الأزمات الدولية: إيران، العراق، سورية، لبنان أنموذجاً

يُمثّل هذا الكتاب مدخلاً إضافياً لفهم آليات عمل السياسة الأميركية في منطقة الشرق الأوسط؛ لأنه يعيدها إلى مركزٍ قلّمَا حظيَ بأهميةٍ لازمة، هو مركز التركيبة الثقافية والفكرية النظرية للإدارات الحاكمة في الولايات المتحدة الأميركية وممارساتها السياسية.

وفي هذا الكتاب، يطرح المؤلف سؤالاً إشكاليّاً أساسيّاً، هو: ما هي المحددات التي تنطلق منها سياسة الولايات المتحدة في إدارتها أزمات الشرق الأوسط؟ وكيف تُترجم المقاربتان السياسيّتان النظريّتان للجمهوريين والديمقراطيين إلى سياسات فعلية؟ وفي هذا السياق يرى المؤلف أنّ سياسة الولايات المتحدة في إدارة أزمات الشرق الأوسط تتركز على أسلوبين من أساليب المقاربة؛ أحدهما تتمثّل بالمقاربة الديمقراطية النيوليبرالية القائمة على تغليف الغايات والأهداف بغلاف من الدبلوماسية الناعمة المدعومة بسياسات استخدام القوة، والآخر باستخدام لغة القوة والتهديد بها للتوصل إلى الأهداف النهائية للسياسة الأميركية تجاه أزمات المنطقة.

مصطفى أيت خرواش\*

## مراجعة كتاب

# روح الديمقراطية، الكفاح من أجل بناء مجتمعات حرة

” عنوان الكتاب: روح الديمقراطية، الكفاح من أجل بناء مجتمعات حرة.

المؤلف: لاري دايوند.

المترجم: عبد النور الخراقي.

سنة النشر: ٢٠١٤.

الناشر: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت.

عدد الصفحات: ٢٠٨ صفحات.

“

\* باحث مغربي، مهتم بقضايا الفكر الإسلامي المعاصر.

## تقديم عام

والهشاشة الاجتماعية والاقتصاد الضعيف وانتهاكات حقوق الإنسان وانتشار الاستبداد السياسي المنظم. ولذلك عُدَّت هذه المجتمعات بعيدة كلَّ البعد عن طريق إحلال الديمقراطية التي تتطلب وعيًا اجتماعيًا، مهطلب الحرية وتحقيق العدل وحقوق الإنسان ودولة المؤسسات، ونظامًا من القوانين الحرة والشفافة. بل ذهب بعض المفكرين الغربيين إلى عدِّ الديمقراطية فكرة ومولودًا أوروبيًا نشأ بفعل مساعدة عوامل ثقافية ودينية واجتماعية وسياسية عديدة كانت منتشرة في أوروبا الشمالية. وكان من بين هذه العوامل، وجود فكر ديني يساعد على انتشار أفكار ليبرالية، ثم تزامن ذلك مع وجود طبقة اجتماعية متعلمة وماهرة في التجارة والصناعة ساهمت في تحقيق الانتقال إلى نظام الديمقراطية المؤسساتية. في هذا المؤلف الذي بين أيدينا، يذهب المفكر الأمريكي لاري دايهوند<sup>(١)</sup> إلى دحض هذه القناعة، ويميل بالمقابل إلى عدِّ الديمقراطية فكرة ونظامًا سلسًا ومرنًا، وهي ممكنة التحقيق في جميع المجتمعات بغضِّ النظر عن الاختلافات الثقافية والعرقية والاجتماعية والسياسية وحتى الاقتصادية.

يُعدُّ لاري دايهوند واحدًا من صنَّاع الرأي الأمريكيين. وهو سوسولوجي سياسي أميركي ومفكر في الدراسات الديمقراطية. وهو أستاذ علم الاجتماع والعلوم السياسية في جامعة ستانفورد ومدير معهد البحث التابع للجامعة في الديمقراطية والتنمية وحكم القانون، وهو مؤسس المجلة المرموقة: مجلة الديمقراطية Journal of Democracy. كما يُعدُّ مشرفًا وزائرًا في العديد من المراكز البحثية الأمريكية المرموقة؛ كمركز روروفيلث، ومركز هووفر، ومركز فريمان سبوكلي للدراسات الدولية. وهو مستشار في العديد من المنظمات الدولية؛ كالبنك الدولي، وهيئة الأمم المتحدة، والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية. عمل في العديد من البرامج الحكومية الدولية، كعمله مستشارًا في البعثة المشرفة على الحكومة الانتقالية في العراق. صدر له مجموعة من المؤلفات، من أهمها: "الانتصار المفقود: الاحتلال الأمريكي والجهود الفاشلة لإحلال الديمقراطية في العراق سنة ٢٠٠٥"، و"روح الديمقراطية، الكفاح من أجل مجتمعات حرة". وهو الكتاب الذي نقدّمه في هذه الورقة.

أثنى باحثون مرموقون على كتاب لاري دايهوند ثناءً واسعًا؛ أمثال: فرنسيس فوكوياما صاحب كتاب "أميركا في مفترق الطرق"، ثم بيتر

يرتبط مفهوم الديمقراطية نظريًا وواقعيًا بقيمة الحرية. وهي الفكرة التي نجدتها في أدبيات العلوم الإنسانية والاجتماعية التي تدرس تطوّر الفكر الإنساني المعاصر، وفي تطبيقات السياسات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة. ولا شك في أن الديمقراطية بما هي التدبير المعقّل للاجتماع البشري، تروم تحقيق الحريات وضبط النوازع غير الطبيعية نحو العنف والإقصاء والاستبداد وانتهاكات حقوق الإنسان. بالنظر إلى هذه الخلفية التأسيسية، فإن الديمقراطية تبدأ من الحرية وتنتهي إليها بطرقٍ شتى. أي إن الوعي بالحرية الذاتية أولًا ثم استشعار ضرورة النضال من أجل تحقيقها ثانيًا، هما الدفاعان اللذان يجعلان الديمقراطية مطلبًا إنسانيًا ملغًا، يلجأ له الأفراد كما الجماعات من أجل ترشيد علاقاتهم فيما بينهم، ثم الحيلولة دون نشوء الاستبداد والسلطوي والديني اللذين يستعبدان حرية الأفراد والجماعات معًا. لقد نشأت الديمقراطية في أوروبا بوصفها نظامًا من القيم والأفكار المؤسساتية والسلوكيات الواقعية، عندما ثار الرهبان ضد عنف الكنيسة والاستعباد الديني وبداية تقبل أفكار الإبداع والمبادرة الفردية والتجارة وتحقيق قيم جديدة كانت الكنيسة تعدها من الموبقات. كما تحققت الديمقراطية عندما بدأت الثورات السياسية تجتاح أوروبا ضد الأنظمة السياسية المستبدة، واستطاعت أن تُقعد لأفكار الأنوار وبناء أنظمة سياسية مؤسساتية تحترم حريات الأفراد وتسعى لتحقيقها والدفاع عنها بنظم مؤسساتية قوية يستحيل معها عودة الاستبداد والاستعباد. إن التفكير في شروط قيام الديمقراطية ومتطلباتها المبدئية والظروف الملائمة لبروزها، جعل الكثير من دارسي النظرية السياسية يميل إلى القناعة التي تقول بأن الديمقراطية هي استثناء يقوم في مجتمعات استثنائية تتحقّق فيها مبادئ العيش المشترك والسلمي.

”

التفكير في شروط قيام الديمقراطية ومتطلباتها المبدئية والظروف الملائمة لبروزها، جعل الكثير من دارسي النظرية السياسية يميل إلى القناعة التي تقول بأن الديمقراطية هي استثناء يقوم في مجتمعات استثنائية

“

بالمحصلة، تميل المدرسة الواقعية الأمريكية إلى هذا النزوع الذي ينفي أي إمكانية لقيام نظام الديمقراطية في مجتمعات معيّنة معروفة بالفقر

١ مفكر سياسي وسوسولوجي أميركي وأستاذ علم الاجتماع والعلوم السياسية في جامعة ستانفورد.

منها يؤدي إلى إنتاج نوعين من الأنظمة، وهما: النظام الديمقراطي الليبرالي، ثم النظام الديمقراطي المزيف pseudo-democracy أو النظام التسلسلي الانتخابي Electoral Authoritarian Regimes.

إنّ مفهوم الديمقراطية بهذا التقسيم الذي ضبطه المؤلف يجعلنا نقف أمام جهاز قياس درجة الديمقراطية في أيّ نظام سياسي، بحسب توافر كامل الشروط الموضوعية والذاتية أو نقصانها. ولذلك يرى لاري داهوند أنّ تحقيق كلّ الشروط التي سردها في تعريفه هو الطريق الوحيد نحو قيام ما سمّاه النظام الديمقراطي الليبرالي، في حين يرى في المقابل استلابها صوريًا سببًا في قيام الأنظمة الديمقراطية المزيفة وذات السلطة الانتخابية المزيفة. من جهة، يجعلنا هذا التقسيم نقيد الديمقراطية في اتجاهين حادّين ومتضادّين تظهر الديمقراطية في واحد وتغيب في آخر. وهو على كلّ حال صحيح بالنظر إلى أنّ قيام الديمقراطية وسقوطها يمرّان عبر توافر شبكة من الآليات المؤسسية التي ذكر الكاتب بعضها، أو عدم توافرها. من جهة أخرى، لم يتعرض الكاتب للأنظمة الوسيطة والنامية والانتقالية، والتي تعمل بحسب إمكانياتها الذاتية والموضوعية على تحقيق نوع من الديمقراطية المحلية بالمعايير المتعارف عليها دوليًا، وتداخل بين مقوماتها وطاقاتها المحدودة، سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو المؤسسي.

مناقشة التعاريف الممكنة لمفهوم الديمقراطية وآليات اشتغالها، أدت بالكاتب إلى دراسة أطروحة ارتباط الديمقراطية بالنمو الاقتصادي. وهي الأطروحة التي شغلت بال المفكرين السياسيين والاقتصاديين معًا، والتي عرفت سجلات قوية لا تزال تتعرض للنقد والنقد المضاد. فلقد عرفت بداية السبعينيات ظهور نظرية "التجديد" القائلة بارتباط كمّ النمو الاقتصادي وظهور الديمقراطية، بتوافر مجموعة من الشروط القبلية التي سماها العالم السوسيولوجي الشهير سيمور مارتن ليبست Seymour Martin Lipset الضرورية الاجتماعية للديمقراطية. وهي التي لخصها في مقولته الشهيرة: "كلّما ازدادت الدولة ثراء، ازدادت فرص دعمها للديمقراطية". وهي الأطروحة نفسها التي أثبتتها الاقتصادي أمارتيا سين Amartya Sen الحاصل على جائزة نوبل للاقتصاد سنة ١٩٩٨ بفضل توصله جزئيًا إلى فكرة أنّ الدول الديمقراطية لا تعاني حالات المجاعة (ص ٥٠).

ليست أطروحة ارتباط الديمقراطية بالنمو الاقتصادي بالفكرة السهلة التي يجري الاستدلال بها عن طريق المنطق الموضوعي أو الإمبريقي

بينارت صاحب كتاب "أزمة الصهيونية". وصدرت الطبعة الأصلية من هذا الكتاب سنة ٢٠٠٨. وترجمها إلى العربية سنة ٢٠١٤ المترجم عبد النور الخراقي الذي فاز من خلالها بجائزة الترجمة في مسابقة المغرب للكتاب لسنة ٢٠١٥. يقع الكتاب في ٢٠٨ صفحات من الحجم الكبير. وهو ينقسم إلى مقدمة للمترجم والكاتب، ثم ثلاثة أقسام رئيسة تتوزّع إلى فصول وأبواب ثانوية. يهدف الكتاب، كما يبين ذلك لاري داهوند، إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة، وهي: كيف تكون الديمقراطية جالبة للتنمية المستدامة؟ هل بإمكان العالم برمته أن يصير ديمقراطيًا بمعزل عن المعتقدات والقيم والأيدولوجيات المختلفة؟ هل بالإمكان فعلاً بناء مجتمعات حرة وديمقراطية عبر العالم؟ وعن طريق الإجابة عن هذه الأسئلة، يسعى الكاتب إلى تحديد العوائق التاريخية والبنائية التي تقف أمام الديمقراطية عبر العالم والشروط الكفيلة ليس فقط بلوغها بل لدعمها وتفعيلها أيضًا.

## ما هي القيم الديمقراطية؟ ما هي الديمقراطية؟

يبدأ المؤلف بتعريف الديمقراطية. ويعتمد في ذلك على تصوّرين مفاهيميين؛ وهما كما ترجمهما المترجم: التصورات الرقيقة، والتصورات السميكة. ويعتمد في التقسيم الأول (التصورات الرقيقة أو الدقيقة) على تعريف العالم الاقتصادي النمساوي جوزيف شومبيتر الذي يعدّها (أي الديمقراطية) نظامًا يسعى إلى بلوغ قرارات سياسية ينال من خلالها الأفراد سلطة اتخاذ القرار عن طريق خوض صراع تنافسي من أجل الحصول على صوت الشعب (انتخابات حرة ونزيهة) (ص ٤١). أمّا ما عدّه التصورات السميكة (الرؤى العريضة)، فهو مجمل الخاصيات والقيم العامة المميّزة للديمقراطية والنظام الديمقراطي، وهي وجود قدر كبير من الحرية الفردية (الاعتقاد، والرأي، والنقاش، والتعبير...) وضمان حرية الأقليات الإثنية والدينية والعرقية، وحق الأفراد في التصويت والترشح والصدق والمنافسة في الانتخابات، وضمان مساواة الأفراد أمام القانون واستقلال القضاء، وتوافر العمل المؤسسي الشفاف والحر، وتفعيل مبدأ التعددية، ووجود مجتمع مدني فاعل ومستقل، ثم ضرورة سيطرة مسؤولين مدنيين على الآلة العسكرية وأمن الدولة. وبالتفاعل مع هذا التصنيف، فإنّ الكاتب يرى أنّ توافر كامل هذه الشروط أو جزء

وللحفاظ على الأتباع والحكم الفردي، بـ "الباتريموانيا الجديدة" Neopatrimonialism، مستفيدين من فكرة عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر Max Vieber التي مفادها أن في كل الأنظمة التقليدية الصغيرة، يحوّل الحكم الفردي والعشوائى الناس العاديين إلى زبائن الحاكم، عوضاً عن مواطنين يتمتعون بحقوق. والهدف من هذه الباتريموانيا الجديدة من خلال التنمية الفاسدة، ليس إنتاج المنافع العامة، بل تعزيز الوجود السياسي الشمولي والفردي حيث يستفيد كل من تقرب من السلطة الحاكمة (ص ٣٨٢).

## العوامل الداخلية المحركة لليقراطية

قدّم لاري داهوند مجموعة من العوامل والآليات المحركة لليقراطية، ومنها:

- **الانقسامات الشمولية:** يتعرض النظام الشمولي لانقسامات داخلية خصوصاً بين المتشددين والمعتدلين تُعرضه للانهياب من دون مقدمات، وتمثّل الانقسامات بين القاعدة والقيادة عاملاً مهماً أيضاً في الانتقال الديمقراطي، خصوصاً إذا فشل في تحقيق أهدافه التي وعدهم بها كما وقع في اليونان والأرجنتين والأوروغواي والفيليبين وأوروبا الشرقية وبنين وزمبابوي وجورجيا وأوكرانيا...

- **التنمية الشمولية:** رأى أنّ النجاح الشمولي في تحقيق تنمية اقتصادية يؤدي إلى قيام الديمقراطية؛ فالنمو السريع وفتح الأسواق وانتعاش التجارة لها انعكاسات إيجابية على الدخل الفردي وشروط العيش وتحسين مستوى التعليم وتنامي طبقة متوسطة بوجوازية، وغيرها. تؤدي هذه الظروف مجتمعةً إلى تطور الحاجيات الفردية والجماعية، من حاجيات اقتصادية واجتماعية إلى سياسية (تجربة تاوان). لكن فكرة اقتران الديمقراطية بالتنمية تحتل العديد من الناقص، إذ إنّ العديد من التجارب الديمقراطية لم تحقق التنمية الاقتصادية المنشودة.

- **القيم الحرة:** تغبّر التنمية الاقتصادية البنى الاجتماعية والاقتصادية والقيم والمواقف باتجاه الديمقراطية. ويرى ليبست أنّ "التنمية الاقتصادية بتحقيقها إنتاج دخل مرتفع، وأمن اقتصادي أكبر، وتعليم عالٍ واسع، فهي تحدد على نحوٍ واسع

الصارم، بل هي تحتل كثيراً من الارتدادات والهزات التي تجعلها تتغير وتتلون بحسب توافر ما سمّاه مارتن ليبست "الضروريات الاجتماعية"، أو عدم توافره. كما أنّ توافر نظام سياسي منتخب والذي يشتغل بالمؤسسات السياسية الشفافة والحرّة، ونظام قانوني عادل، ومؤسسات اقتصادية حرّة وتنافسية، فإنّه لا محالة ستحدث طفرة اقتصادية وموؤ اجتماعي؛ لأنّ الاقتصاد يتقيّد بالقوانين كما يمكن أن يتحرّر بها ويتطوّر. لكن من جهة أخرى، فإنّ توافر نظام سياسي شفاف ومنفتح لا يضمن وحده إمكانية حدوث الثورة الاقتصادية من دون وجود موارد طبيعية وإمكانات صناعية وطرق تجارية مثلاً، وهناك دول ديمقراطية سياسياً ولكن فقيرة اقتصادياً. وبالمقابل، فإنّ توافر إمكانات طبيعية واقتصادية لدى دول معيّنة أسفر عن ثورة ودينامية اقتصاديتين، فهذا يعني أنّها دول ديمقراطية، بل قد تكون دولاً استبدادية بصورة متشددة. من هنا، وفي معرض حديثه عن أطروحة الديمقراطية والنمو الاقتصادي، عرّج الكاتب على ما سمّاه "لجنة النفط الاستثنائي" (ص ١٢٢)؛ فلقد عدّد تقريباً ثلاثاً وعشرين دولة نفطية تنعدم فيها الديمقراطية، فعندما يكون النفط هو المهيمن على صادرات بلد ما، فإنّ مبالغ ضخمة من العائدات تتدفق من الخارج نحو صناديق الدولة مباشرةً، وتصبح الدولة بذلك الفاعل الاقتصادي الأكثر قوة، وينقلب شعبها إلى زبائن، وليس مواطنين حقيقيين.

”

في كل الأنظمة التقليدية الصغيرة، يحوّل الحكم الفردي والعشوائى الناس العاديين إلى زبائن الحاكم، عوضاً عن مواطنين يتمتعون بحقوق

“

ويُرجع الكاتب أسباب عدم عمل معادلة التنمية الاقتصادية إلى غياب ما سمّاه الحوكمة؛ فهو يعتمد على أطروحة الاقتصادي الأرجنتيني دانيال كوفمان Daniel Kaufman الذي ابتكر مقياس لتقييم جودة الحوكمة، ومنها: التعبير والمحاسبة والاستقرار السياسي وفعالية الحكومة وجودة نظام الحكومة وحكم سيادة القانون ومراقبة الفساد. وكان علماء الاجتماع يُسمون هذا النوع من الاستغلال الفردي البشع لدخول الثروة النفطية وللمساعدات الخارجية للاغتناء الشخصي